علم الإناسة (الأنثروبولوجي) عند الرَّحّالة والجغرافيين المسلمين" علم الإناسة (الأنثروبولوجي) عند الرَّحّالة والجغرافيين المسلمين"

ا. حسين حمد حسين الفقيه

محاضر بجامعة السيد محمد بن علي السنوسي الإسلامية، كلية التاريخ والحضارة، قسم الحضارة

h.alfageeh.s@gmail.com

المستخلص:

الغاية من هذه الدراسة هي لتخطي إشكالية أيديولوجية في بداية ظهور علم الإناسة (الأنثروبولوجي) عند المسلمين، ومساهمة مني لجمع بوادر أفكار ونظريات وإسهامات الجغرافيون المسلمون في هذا العلم، ومحاولاتهم الفكرية لتقديم معرفة ثقافية غرضها إنجاز فكر إجتماعي واثنولوجي، والإسهام في معرفة الآخر. أما عن المنهج المتبع في هذه الدراسة فهو المنهج السردي التحليلي المقارن الذي يسرد الأحداث التاريخية ويحللها ويقارنها بنظائرها الأخرى. ولا يفوتنا في هذا المقام أن نلفت النظر إلى أن الإرهاصات الأولى لهذا العلم ظهرت عند بعض الشعوب القديمة، من أبرزهم المصريون واليونانيون والصينيون والرومان، وكان الجغرافيون والرَّحّالة المسلمون قد اقتبسوا من الشعوب التي سبقتهم في هذا المجال؛ بعض النظريات والأفكار، فيما يخص معرفتهم بالأمم الأخرى من حولهم. وبناءً عليه، ظهر عدد كبير من الجغرافيون والرحالة الذين قدموا في مدوناتهم ما شاهدوه من ثقافات وعادات سلوكية عند الأمم الأخرى، وأيضًا قدموا العديد من النظريات في هذا العلم، وإن لم يكونوا على معرفة بأنهم قد اخترعوا علمًا جديدًا، كان له أثر كبير على أوروبا وعلى العالم أجمع. وقد خلصت هذه الدراسة إلى عدة نتائج وهي: إن الجغرافيون المسلمون هم أول من وضع علم الإناسة بفروعه المتعددة، من بينها الطبيعي والاجتماعي والثقافي. قدم فريق من الجغرافيون المسلمون في مؤلفاتهم الإرهاصات الأولى للأفكار والنظريات الأنثروبولوجية، من أبرزها أثر البيئة الجغرافية والمناخ في سلوك وطباع البشر، مما ساعد المسلمين على معرفة الطبائع والسلوكيات عند الشعوب الأخرى. تبنى كثير من العلماء الغربيين، في العصر الحديث، العديد من نظريات المسلمين في علم الإناسة، وهو تأثير آخر يضاف إلى مؤثرات الحضارة الإسلامية على أوروبا.

الكلمات المفتاحية: *التاريخ–الجغرافيا–الرحالة المسلمون–الحضارة الإسلامية–تاريخ العلوم الإسلامية–علم الإناسة.*

المبحث الأول

تعريفه

عَرَّفَ ابن الأكفاني هذا العلم بأنه: "**علم يُتعرَّفُ منه أخلاق الإنسان من هيئته ومزاجه وتوابعه**" (ابن الأكفاني، د.ت، ص 176).

وعَرَّفَهُ طاش كبري زاده بأنه: "**علم باحث عن الاستدلال بالخطوط الموجودة في الأكُفِّ والأقدام والجباه**

بحسب التقاطع والتباين والطول والعرض والقصر بحسب مابينهما من الفُرَجِ المُتَّسِعة أو المُتَضائقة". ويقسمه طاش كبري زاده إلى عدة فروع وهي: "علم الشامات والخيلان، علم الأسارير، علم الأكتاف" (طاش كبري زاده، 1985، ص ج1/ص327،328).

وأما **تعريفه الحديث**؛ فقد عَرَّفَهُ شاكر مصطفى سليم في قاموسه بأنه: "علم دراسة الإنسان طبيعياً، واجتماعياً، وحضارياً. وهذا المُصطلح (الأنثروبولوجيا Anthropology) مشتق من كلمتين (يونانيتين) هما (Anthropos) أي إنسان، و (logos) أي علم، وتعنيان معاً علم الإنسان" (سليم، 1981، ص 56).

وتتكون الأنثروبولوجيا المُعاصرة، من وجهة النظر البريطانية، من (الأنثروبولوجيا الطبيعية)، و (الأنثروبولوجيا الاجتماعية) التي تظم (الأنثروبولوجيا الحضارية) كفرع من فروعها، و (الأنثروبولوجيا التطبيقية) و (الإثنولوجيا) (خضر، استرجع: 30.11.2014).

وتتكون الأنثروبولوجيا بوصفها دراسة للإنسان في أبعاده المختلفة البيوفيزيائية، والاجتماعية، والثقافية، وهو علم شامل يجمع بين ميادين ومجالات متباينة ومُختلفة بعضها عن بعض، مثل: علم التشريح، وتاريخ تطور الجنس البشري، والجماعات العرقية، وعلوم دراسة النظم الاجتماعية من سياسية واقتصادية ودينية وقانونية وما إليها (الشرقاوي، 1987، ص 139).

المبحث الثاني

علم الإناسة عند الشعوب القديمة

زعم العلماء الغربيون أنهم اكتشفوا علماً جديداً، وهو علم علم الإنسان الاجتماعي، وأسموه بالأنثروبولوجيا، وذلك في أواخر القرن التاسع عشر، ومطلع القرن العشرين (الشرقاوي، 1987، ص 139).

إلا أن وصف ثقافات الشعوب والحضارات الإنسانية، وعقد المُقارنات بينها قد جذب انتباه كثير من المُفكِّرين والكُتّاب منذ قديم الزمان، ولقد حاول كثيرون عبر التاريخ تقديم الملاحظات الخاصة بالطبيعة الإنسانية، والوجود البشري، كما افترضوا بعض التفسيرات بصدد الاختلافات القائمة بين الشعوب سواء في النواحي الجسمانية، أو في التقاليد والعُرف والمُعتقدات (فهيم، 1986، ص 40).

ولعبت الحروب والرحلات التجارية، منذ عصور ما قبل الميلاد، دوراً مهماً، ولا شك، في حدوث اتصال بين الشعوب واكتساب معرفة الواحد بالآخر، خاصة فيما يتعلق باللغة، والتقاليد، والعادات (فهيم، 1986، ص 40).

عند المصريين القدماء، لقد قام المصريون برحلات نهرية وبرية كثيرة جعلتهم يتعرفون على كل الشعوب المقيمة من حولهم (الدفاع، 1993، ص 15). ونرى أن أقدم وصف أنثروبولوجي في عام (1493 ق.م) من خلال النقوش التي صُوِّرت في معبد الدير البحري، إستقبال ملك وملكة بلاد "بونت" لمبعوث مصري، وفي هذه النقوش، برزت تفاصيل الصفات الجسمانية لتلك الشعوب من أقزام أفريقيا، وبدى واضحاً فيها ما اتصف به أهل المملكة من تراكم السمنة بإفراط – خاصة الإلية – شأنهم في ذلك شأن جماعة (البوشمان Pushman) حالياً في صحراء كالهاري (Mauduit. d'ethnographia, P 18).

أما **عند اليونانيون القدماء** نرى أن أرسطو (384 – 322 ق.م) قد انغمس أيضاً في التخمينات حول طبيعة الإنسان وعلم أجناسه البشرية الفلسفي، فناقش فكرة الإختلافات بين البشر عموماً والحيوانات، واستنتج من ذلك أن البشر على الرغم من أن لديهم عدة احتياجات على غرار الحيوانات، فإنهم يملكون سبباً وحكمة ومبادئ أخلاقية، وهو أول من قال في فلسفته بأن البشر أساساً اجتماعيين بطبيعتهم (Thomas Eriksen, Anthropology, P3).

نذكر أيضاً المؤرخ اليوناني (هيرودوتس Heredotus) الذي عاش خلال القرن الخامس قبل الميلاد، والذي يعتبره مُعظم كُتّاب تاريخ الأنثروبولوجيا أول باحث أنثروبولوجي في التاريخ، ويرجع السبب في ذلك إلى أنه كان قد جمع معلومات وصفية دقيقة عن عددٍ كبيرٍ من الشعوب الغير أوروبية، حيث تناول تقاليدهم وعاداتهم وملامحهم الجسمانية وأصولهم السلالية (فهيم، 1986، ص 41). وكان أبقراط من أبرز العلماء اليونان في هذا المجال، حيث ترجم المسلمون كتابه الموسوم بـ: "كتاب الأهوية والمياه والبلدان" وبنوا عليه مؤلفاتهم اللاحقة في علم أهوية البلدان والإناسة (أبقراط، 1885، ص 43،64). وكان أيضًا لجالينوس العديد من النظريات التي اقتبس منها علماء المسلمين فيما بعد وبنوا عليها دراساتهم في هذا المجال.

وفي عصر الإمبراطورية الرومانية، الذي امتد حوالي ستة قرون، نجد الرومان قد تابعوا ما طرحه اليونانيون من قضايا حول طبيعة المجتمعات الإنسانية وتفسير التباين بينها، إلا أنهم نبذوا التجريد ووضع النماذج المثالية لما يجب أن تكون عليه سُبُل الحياة الإنسانية، ووجهوا دراساتهم نحو الواقع الملموس والمحسوس، ومع ذلك، لا يجد الأنثروبولوجيون في الفكر الروماني ما يُمكن اعتباره بمثابة اسهامات أصيلة في نشأة علم مُستقل لدراسة الشعوب وثقافاتهم، أو تقاليد راسخة لمثل هذه الدراسات (فهيم، 1986، ص 46، 47).

عند الصينيون القدماء، كان الصينيون يشعرون بالأمان داخل حدودهم، وكانوا مُكتفين ذاتياً، حتى أن

تجارتهم مع العالم الخارجي انحصرت في تبادل السلع والمنافع، ولم تنشأ عنها تأثيرات ثقافية عميقة (فهيم، 1986، ص 48)، ولم يعبأ الصينيون بالثقافات الأخرى خارج حدودهم، ومع هذا لم يخلو تاريخ الصين من التقارير الوصفية لعادات الجماعات البربرية، وإن كانت تقدم في أسلوب يتسم بالازدراء والاحتقار لتلك الشعوب (Darnell, 1978. P 23).

المبحث الثالث

مآثر المُسلمين في علم الإناسة

لقد عَرَفَ علماء المسلمين علم الإناسة (الأنثروبولوجيا) منذ العصر الإسلامي الأول (صدر الإسلام)، والذي أدى إلى معرفة هذا العلم؛ هو ما قام به الخلفاء المسلمون من إرسال للوفود والرسل والمُستكشفين والرَّحّالة لمُختلف بقاع الأرض لمعرفة طبيعة تلك البلدان والأراضي المُختلفة، والوقوف على طبائع وعادات وسلوك وثقافات أهلها وسُكّانها، ودراسة عاداتهم وأخلاقهم وصنائعهم (الكروي، 1984، ص 275).

وربما لم يتعمَّد المسلمون اختراع علم بهذا التخصص؛ لكنهم عرفوه وركزوا عليه دراستهم، وكانت أغلب أفكارهم ودراساتهم التنويرية في هذا المجال؛ هي البذور الأولى لعلم الأنثروبولوجيا.

من أوائل الجغرافيون الذين اهتموا بتدوين المعلومات الأنثربولوجية عن سكان البلدان؛كان الرحالة والجغرافي الفارسي المسلم المعروف باسم **خرداذبه** (متوفى: 280.هـ/ 893.م)، عندما وصف سكان مدينة الرامي: "وبها ناس عراة في غياض لا يُفهم كلامهم لأنه صفير، وهم صغار يستوحشون من الناس، طول الإنسان منهم أربعة أشابر، للرجل ذكر صغير وللمرأة فرج صغير، شعر رؤوسهم زغب أحمر، يتسلقون الأشجار بأيديهم دون أن يضعوا أرجلهم عليها" (ابن خرداذبه، 1988، ص 65).

ومن أهم هذه الرحلات؛ رحلة أحمد **بن فُضلان** بن العباس بن راشد (متوفى: 309.هـ/921.م)؛ على ملاحظات ومعلومات أنثروبولوجية وإثنولوجية كثيرة ووافية عن الشعوب التي زارها في قارة آسيا (حميدة، 1995، ص 73). كالترك، والصقالبة، والروس، والخزر، ودوَّن في كتابه كل ما شاهده في رحلته الطويلة عن سلوك هذه الشعوب ولغاتهم وعاداتهم وثقافاتهم (حسن، 2013، ص 24، 25)، ومن الأمثلة على ذلك نورد هذا النص الذي يصف فيه شعب الروسية (كما يسميهم) حيث يقول: "ورأيت الروسية وقد وافوا في تجارتهم، ونزلوا على نهر (إتل) فلم أرى أتم أبداناً منهم كأنهم النخل، شُقرٌ حُمرٌ لا يلبسون القراطق ولا الخفاتين" (ابن فضلان، 1960، ص 149).

ومن أبرز العلماء المسلمين الذين اهتموا بعلم الإناسة المؤرخ والجغرافي **المسعودي** (متوفى: 346.هـ/957.م)، وله في كتابه: "**مروج الذهب ومعادن الجوهر**"، بعض النظريات في هذا المجال، لقد رأى أن للشمس تأثير كبير في ملامح وسلوك بعض الأجناس البشرية، من حيث بُعد الشمس وقُربها (كراتشوفسكي، 1957، ج1/ص 182). ومن الأمثلة على بعض نظرياته أيضاً، أن شعب السودان، وهم المعروفون الآن بالأفارقة، قد أثَّرت الشمس على شعورهم فتجعدت، وألوانهم فتغيرت (الخفاف، 2000، ص 38). وكذلك يرى أن ما لحق الصقالبة من شُقرتهم وصهوبة شعرهم هو من تأثير بُعد الشمس عنهم، وله كذلك نظرية خاصة في المميزات الجسدية للترك، من حيث استرخاء مفاصلهم، واعوجاج سيقانهم، وليونة مفاصل عظامهم، وحُمرة وجوههم، وأن ذلك سببه ارتفاع الشمس عنهم، وكذلك لغلبة البرد على أجسامهم (المسعودي، 2005، ج2/ص 171).

اهتم المسعودي بالدراسة الاجتماعية عن عادات شعوب الهند وتقاليدهم، وطريقة الحكم عندهم، وتقاليدهم في الشراب ومنعه في مجتمعهم وخاصة عند الملوك (المسعودي، 2005، ج1/ ص 67). واعتمد على أفكار "جالينوس" اليوناني في علم الإناسة، فهو يقول: "وقد ذكر جالينوس في الإنسان الأسود عشر خصالٍ اجتمعت فيه، ولم توجد في غيره، تفلفل الشَّعر، وخِفَّة الحاجبين، وانتشار المنخرين، وغلظ الشفتين، وتحديد الأسنان،ونتن الجلد، وسواد الحدق، وتشقق اليدين والرجلين، وطول الذكر، وكثرة الطرب" (المسعودي، 2005، ج1/ ص 66).

ويتضح في نصوص المسعودي كذلك تأثير البيئة الطبيعية، وقد أفرد في ذلك فصلاً كاملاً من كتابه، فقد روى أن الخليفة الراشدي عمر بن الخطاب (ﷺ)، حين تقدمت جيوش المسلمين الفاتحين في البلدان المُختلفة، وذلك من باب حرصه على أرواح الجنود المسلمين، طلب من حكيم من حكماء عصره أن يزوده بمعلومات وافية عن طبيعة كل أرض وطباع أهلها، وهذا التصَرُّف نلتمس فيه معرفة الخليفة الراشدي عمر بن الخطاب (ﷺ) بشيءٍ من هذا النحو، وإن كانت هذه النظرة العلمية قد جائت من قبل الخليفة بصورة فطرية وعفوية وغير مقصود بها معرفته لهذا العلم، ومفاد ذلك في هذا النص الذي رواه المسعودي: "حين فتح الله البلاد على المسلمين من العراق والشام ومصر، وغير ذلك من الأرض، كتب إلى حكيم من حكماء العصر: إنا أُناس عرب، وقد فتح الله علينا البلاد، ونريد أن نتبوأ الأرض، ونسكن البلاد والأمصار، فصِف لي المُدن وأهويتها،ومساكنها، ومما تؤثِّره التربة والأهوية في سُكّانها". وكان رد الحكيم على عمر بن الخطاب (ﷺ) في تقرير مُفَصَّل عن طبائع بعض البُلدان المعروفة لديهم في ذلك الوقت، ووصف فيه ما تؤثره كل بلاد على أهلها، فأما عن الشام فيقول عنها: "تُرطّبُ الأجسام، وتُبلّد الأحلام، وتُصفّي الألوان، وخاصة أرض حمص، فإنها تُحسِّن الجسم،

وتُصَفِّي اللون، وتبلّد الفهم، وتنزح غوره، وتُجفي طبعه، وتذهب بماء القريحة، وتنصب العقول" (المسعودي، 2005، ج2/ ص 48، 49).

وفي أرض مصر يقول: "تُكَدِّرُ الألوان، وتُخيب الفطن، وفي أهلها مكر ورياء، وخبث ودهاء وخديعة". ويقول عن أرض اليمن: "هوائه يُضعف الأجسام، ويُذهب الأحلام، ويُذهب الرطوبة، وفي أهلهه همكبار،ولهم أحساب وأخطار، وفي سُكّانه اغتيال، وبهم قطعة من الحُسن، وشعبة من الترفه وفقرة من الفصاحة" (التميمي، 2014، ص 14، 15). وأما الحجاز فيقول عنه: " فهوائه حرور، وليله بهور، يُنحِفُ الأجسام، ويُجفف الأدمغة، ويُشجِّع القلوب، ويبسط الهمم". ويقول في المغرب: "في أهله غدر، ولهم خبث ومكر، ديارهم مُختلفة، وهممهم غير مؤتلفة". وأما عن العراق فيقول: "عنده وقف الاعتدال، فصفت أمزجة أهله، ولطُفت أذهانهم، واحتدَّت خواطرهم، واتصلت مسراتهم، فظهر منهم الدهاء، وقويت عقولهم، وثبتت بصائرهم" (المسعودي، 2005، ج2/ص 49، 50).

هذا ما كتبه حكيم ذاك الزمان وما قدمه من وصفٍ لسكان تلك البلدان، ليُبرز لنا معرفة المسلمين بعلم طبائع البشر والتي يضيق المقام بذكرها هنا، ولكن اكتفينا بذكر بعض منها للدلالة والتوضيح.

وأدلى **إخوان الصّفا** الذين عاشوا خلال القرن الثالث الهجري / العاشر الميلادي بدلوهم في هذا الموضوع أيضًا، فهم يرون بأن هناك علاقة وثيقة بين طبيعة المُناخ وطبائع الناس، فالمناخ في رأيهم له دور كبير في تشكيل الطبائع البشرية، واختلافها من مكان إلى مكان، وهذه النظرية وردت في رسائلهم المطولة، وخير مثال على ذلك، ماذكروه عن سكان المناطق الحارّة، حيث يقولون: "اعلم يا أخي بأن المحروري الطّباع من الناس وخاصة مزاج القلب، يكونون على الأمر الأكثر شجعان القلوب، أسخياء النفوس، متهورين في الأمور المخوفة، قليلي الثبات، والثاني في الأمور مستعجلي الحركة، شديدي الغضب، سريعي المراجعة، قليلي الحقد، أذكياء النفوس، حادّي الخواطر، جيدي التصور" (إخوان الصفا، د.ت، ج1/ ص 40).

وأما عن سُكان المناطق الباردة فيصفون طبائعهم بقولهم: "والمبرودين في الأمر الأكثر يكونون بليدي الذهن، غليظي الطباع، ثقيلي الأرواح، غير نضيجي الأخلاق". وتحدثوا عن صفات وطبائع سكان المناطق الرطبة المدارية التي ترتفع فيها نسبة الرطوبة فقالوا: "والمرطوبين يكونون في أكثر الأمر ذوي طباع بلِدةٍ وقلة ثبات في الأمور، وليني الجانب، سُمحاء النفوس، وطيبي الأخلاق، وسهلي القبول، سريعي النسيان، وكثيري التهور في الأمور الطبيعية". أما نظريتهم عن سكان المناطق الجافة فيقولون: "واليابسي المزاج يكونون في أكثر

الأمور صابرين في الأعمال ثابتي الرأي عسري القبول، والغالب عليهم الضبط، والحقد، والبخل، والإمساك، والحفظ" (إخوان الصفا، د.ت، ج1/ ص 40).

وظهر **المقدسي** (متوفى: 336.هـ/947.م) في مطلع القرن الرابع الهجري، وهو جغرافي كبير وضع في كتابه كثير من الدراسات العينية عن كل ما شاهده، وتكلم في عدة مواضع عن أنواع الأجناس البشرية (محمدين، 1417هـ، ص 199)، ووصف كل جنس بما يميزه عن غيره في العادات والطباع، ونورد هنا جزء مما كتبه عن أهل السودان حيث يقول: "وأما أرض السودان فهم أجناس كثيرة، ...، والخدم الذين ترى على ثلاثة أنواع، جنس يُحملون إلى مصر وهم أجود الأجناس، وجنس يُحملون إلى عدن وهم البربر وهم شر أجناس الخدم، والجنس الثالث على شبه الحبش" (المقدسي، د.ت، ص 231، 232).

ثم يأتي الجغرافي والرحالة الإسلامي **عبد اللطيف البغدادي** (متوفى: 557.هـ/ 1162.م)، ويضع دراسته الأنثروبولوجية فيما لاحظه على أهل مصر وتأثير المناخ في طباعهم وأمزجتهم فيقول: "وأما ذكائهم وتوقد أذهانهم وخفة حركاتهم فلحرارة بلدهم الذاتية لأن رطوبته عرضية. ولهذا كان أهل الصعيد أفحل جسومًا وأجف أمزجة والغالب عليهم السمرة، وكان ساكنو الفسطاط إلى دمياط أرطب أبدانًا والغالب عليهم البياض. ولما رأى قدماء المصريين ان عمارة أرضهم إنما هي بنيلها جعلوا أول سنتهم أول الخريف وذلك عند بلوغ النيل الغاية القصوى من الزيادة" (البغدادي، 1998، ص 58).

وقدم **ابن سعيد المغربي** (متوفى: 610.هـ/1214.م) وصفًا للعديد من الشعوب الأخرى في كتاب رحلته المعنون: "كتاب الجغرافيا"، وهو يحتوي في أغلب صفحاته معلومات أنثروبولجية للشعوب التي زارها، وتكلم فيه عن أجناس البربر والزنوج (ابن سعيد المغربي، 1970، ص 83، 88، 91، 97، 122، ومابعدها).

أما **القزويني** (متوفى: 682.هـ/1283م) الجغرافي المسلم في نهاية القرن السابع الهجري (عوض، 1995، ص 113)، كانت لديته نظريته الخاصة في معرفة الأجناس البشرية، فهو يرى أن هناك تأثير للشمس على طبائع البشر، وكذلك على ألوان بشرتهم وأجسادهم، حيث يقول: "ومن عجيب تأثيرها في الحيوانات أن تجعل أهل البلاد القريبة عن مسامتتها كبلاد السودان الذين هم في الإقليم الأول سوداً محترقين، وتجعل وجوههم من شدة الحرارة قحلة، وجثثهم خفيفة، وأخلاقهم وحشية شبيهة بأخلاق السِّباع" (القزويني، 2000، ص 29).

وله أيضًا نظريته الخاصة في سكان المناطق الباردة فيرى أن تأثير الشمس قد أعطاهم طبائع مختلفة عن أولئك الذين يعيشون في المناطق الحارة، فيقول في ذلك: "والمواضع البعيدة عن مُسامتتها كبلاد الصقالبة والروس

تجعلهم لضعف حرارتها بيضاً، وتجعل شعورهم سبطة شُقراً، وأبدانهم رخِصة عظيمة، وأخلاقهم شبيهة بأخلاق البهائم" (القزويني، 2000، ص 29).

وتحدث القزويني في كتابه عن كثير من الأجناس البشرية وصفاتهم وطبائعهم، وذكر سكان الجزر وآكلي لحوم البشر، والأقزام وغيرهم، والمعلومات في هذا الصدد كثيرة، ونكتفي بهذا القدر الذي ذكرناه وذلك لضيق المقام.

في النصف الأول من القرن الثامن الهجري، برز **الدمشقي** (متوفى: 727.هـ/ 1327.م) وهو جغرافي رحّال وضع فصلاً كاملاً عن تأثير المناخ في أجسام البشر وطباعهم وأخلاقهم، ويقسم شعوب العالم إلى سبعة أقاليم، كل جنس حسب قربهم أو بعدهم عن خط الإستواء، ونورد هنا ما ذكره باختصار عن شعوب الإقليم الأول وهم شعوب أفريقيا حيث يقول: "الأول من خط الإستواء، وإلى ما وراءه وما خلفه وفيه من الأمم الزنج والسودان والحبشة والنوبة ومثلهم، وكل هؤلاء سود سوادهم من قبل الشمس فإنه لما كان حرُّها شديدًا وطلوعها عليهم ومسامتة رؤوسهم لها في السنة مرتين ولا تزال قريبة منهم أسخنتهم إسخانًا مُحرقًا، وصارت شعورهم، التي بالقصر من الطبيعة، سودًا حالكة جعدة، مفلفلةً أشبه شيئ بشعرٍ أُدني من النار حتى يشيط، وأدلّ دليلٍ على أنه مشيط أنه لا ينمو ولا يطول، وجلودهم زهرة ناعمة لتنقية الشمس أوساخ أبدانهم وإجذابها إياها إلى خارج، وأدمغتهم قليلة الرطوبة، فلذلك كانت عقولهم خفيفة، وأفكارهم قصيرة، وأذهانهم جامدة، لا يوجد منهم الشيئ وضده كالأمانة والخيانة، والوفاء والغدر، ولم يوجد فيهم النواميس، ..إلخ" (الدمشقي، 1865، ص 273).

ثم يتحدث عن شعوب الإقليم الثاني فيقول: "وهو دون الأول في إفراط الحر ببلاد السند والهند ومن شاكلهم من الآدم دون السودان وإنما سموا آدمًا لأن حر الشمس لم تبلغ بهم أن تشيط رؤوسهم وشعورهم، ولا تُسَوِّد جلودهم، بل تغيرهم تغييرًا أقل من السواد، وهذا اللون سمي الدكونة، وهم اصحاب نشاط ولا يكاد يؤمل فيهم حب اللهو والشراب واتباع الملاذ، وذلك لحرِّ قلوبهم ويبسها، وليسوا بأهل نواميس لغلبة الإفراط، وكذلك الزنج أقل احتراقًا من النوبة وسبب ذلك أن الزنج واغلون في الشرق يضربهم هواء البحر الهندي، والجامل والنوبة واغلون في الغرب، لا تزال تهب عليهم الريح السوداء والسموم واليحموم فاحترقت أبدانهم واسودت وتفلفلت شعورهم، وكذلك الحبشة متوسطون على جبال ومجاورون المياه الحلوة، فكانوا خُضرًا وسُمرًا وسودًا" (الدمشقي، 1865، ص 274).

أما الإقليم الثالث فيقول أنه دون الثاني في الافراط في الحرارة، وهو الذي يشمل أهل الحجاز وتهامة

واليمامة ونجد ومن جاورهم وسامتهم، ولأنهم يعيشون على أطراف الحَرِّ فإن طباعهم تكون ممزوجة، وإذا رتبوا على ملة ونِحلةٍ صارت في طباعهم وغريزتهم كالخلق، وفيهم الأنفة والحمية والوفاء والمنعة، ولا يجدون التعمق في العلوم العقلية ولا المعقولات دون المحسوسات (الدمشقي، 1865، ص 274).

ثم ينتقل إلى الإقليم الرابع، حيث يرى الدمشقي أنه هو الوسط، فيقول: "وهو القريب إلى اعتدال المزاج واستواء البشارات والأخلاق الكاملة الجامعة للفضائل وأضدادها، وأهله بيض بحمرة ولهم غالب الصناعات العلمية والعملية، وفيهم أساطين الحكمة، ومظهر كل فن من فنون العلوم العقلية والفعلية، ويكاد كل واحد من اهل هذا الإقليم أن يُشار إليه بالفضل والفضيلة مع السياسة والتدبير والشجاعة ووضع كل شيئ في موضعه" (الدمشقي، 1865، ص 275).

ويحدثنا عن شعوب الإقليم الخامس، وهو الأبعد عن خط الإستواء، حيث تقل الحرارة وترتفع البرودة، فيقول: "والخامس في إفراط البرد على مزاج الرابع، وفيه الروم والأرمن والروس واللان، وفيه شمال الأندلس وشمال خراسان، ومن سامتهم من الشرق، ويَتَّسِمون بالبياض بشقرة، وهؤلاء لإفراط البرد وبُعد الشمس، ساءت أخلاقهم وقست قلوبهم، وإنما كانت أبدانهم كذلك لغلبة البرودة والرطوبة واستيلائها، وقَلَّ من يوجد فيهم له فطنة، بل الحيوانية غلبت عليهم والشهوة والغضب وحدة النفس" (الدمشقي، 1865، ص 275).

أما الإقليم السادس، فيقول: "أشد إفراطًا في البرد واليُبس والبعد عن الشمس مع غلبة الرطوبة أيضًا، وفي هذا الإقليم الترك والخزر والفرنج وإفرنسه وكاشقرد ومن سامتهم، وهؤلاء يُسَمَّون الشقر، ونسبة هذه الأمة إلى الصقالبة كنسبة السند إلى السودان، والوانهم بالطبع بيض، وهم كالوحوش لا يعنون بغير الحروب والقتال والصيد، لا يعرفون عرفانًا ولا يفرقون فرقانًا" (الدمشقي، 1865، ص 275).

ثم يتكلم عن الإقليم السابع، وهو موطن الصقالبة، فيقول: "وهم على خُلُقٍ واحدٍ وطبيعة واحدة، كما قلنا في سودان أهل الإقليم الأول، ولا يكادون يفقهون قولاً إلا أنهم كالأنعام بل هم أضل سبيلاً" (الدمشقي، 1865، ص 275).

ومن بين الرحالة المسلمين الذين دونوا المعلومات الأنثروبولوجية عن الأجناس البشرية المختلفة، الرحالة المسلم **ابن بطوطة** (الكيلاني، 2014، ص 21)، (متوفى: 779.هـ/1377.م) الذي تميَّزت كتاباته بخصائص ذات طابع أنثروبولوجي، تركزت في اهتمامه بثقافات الشعوب، ووصف بدقة حياتهم اليومية، وعاداتهم، وسلوكهم، ونرى ذلك في حديثه عن أهل أصفهان، حيث يقول: "وأهل أصفهان حِسان الصور وألوانهم بيض زاهرة مشوبة

بالحمرة، والغالب عليهم الشجاعة والنجدة، وفيهم كرم وتنافس فيما بينهم في الأطعمة" (ابن بطوطة، 1997، ج2/ ص 31).

وقدم العلامة "**ابن خلدون**" (متوفى: 808.هـ/1406.م) الذي كان من أبرز علماء القرن التاسع الهجري، أرائه ونظرياته الخاصة في هذا المجال في مقدمته المشهورة، حيث ناقش ظاهرة تأثير الهواء في ألوان البشر وكذلك في الكثير من سلوكهم وعاداتهم وطباعهم (الخفاف، 2000، ص 39)، وخصص لهذا النقاش فصلاً كاملاً بعنوان: (في المعتدل من الأقاليم والمنحرف وتأثير الهواء في ألوان البشر والكثير في أحوالهم). ومن هذا الفصل نذكر جزءاً مما ناقشه في هذه النظرية؛ حيث تكلم عن الأقاليم التي تتميز بالاعتدال وتأثيرها في ساكنيها: "وجميع ما يتكون في هذه الأقاليم الثلاثة المتوسطة مخصوصة بالاعتدال وسكانها من البشر أعدل أجساماً، وألواناً، وأخلاقاً، وأدياناً" (ابن خلدون، 2001، ج1/ ص 103).

وفيما يخص نظريته في الأماكن البعيدة عن الاعتدال فيرى أن لها تأثير قاسٍ على ساكنيها، ونلتمس ذلك في كلامه: "وأخلاقهم مع ذلك قريبة من خُلُق الحيوانات العُجم حتى ليُنقل عن الكثير من السودان أهل الإقليم الأول أنهم يسكنون الكهوف والغياض ويأكلون العشب، وأنهم متوحشون غير مُستأنسين يأكل بعضهم بعضاً، وكذا الصقالبة، والسبب في ذلك أنهم لبعدهم عن الاعتدال يقرب عَرَضَ أمزجتهم وأخلاقهم من عرض الحيوانات العُجم ويبعدون عن الإنسانية بمقدار ذلك" (ابن خلدون، 2001، ج1/ ص 104).

وتوصَّل ابن خلدون من خلال نظريته أن للهواء تأثير في أخلاق البشر، وقد ناقش ذلك في فصلٍ مُستقلٍّ شرح فيه نظريته بالتفصيل، فهو يرى أن للهواء الحار تأثير على الأرواح؛ وعلَّل ذلك بما قاله عن اهل السودان من حيث خِفَّة أرواحهم وحبهم الشديد للطرب والرقص، وأن هذا المزاج عائد على تأثير الهواء الحارّ في نفوسهم (ابن خلدون، 2001، ج1/ 108).

وأما عن تأثير الهواء البارد، فقد ذكر مثالاً على بلاد المغرب حيث قال: "ولما كانت فاس من بلاد المغرب بالعكس منها في التوغّل في التلول الباردة كيف ترى أهلها مُطرقين إطراق الحزن، وكيف أفرطوا في نظر العواقب حتى أن الرجل منهم ليدّخر قوت سنتين من حبوب الحنطة" (ابن خلدون، 2001، ج1/ 109).

ويُناقش ابن خلدون أيضاً: "وتتبع ذلك في الأقاليم والبلدان تجد في الاخلاق أثراً من كيفيات الهواء والله الخلاق العليم" (ابن خلدون، ج1/ 109).

وبهذا العرض التاريخي، يتبين لنا أن كل هذه النظريات العلمية تتطابق مع النظريات الحديثة في علم الأنثروبولوجيا الحديث، وعند مقارنة العديد منها مع النظريات الحديثة يبدو لنا جليًا التشابه الكبير بينها، وهذا يدل على اقتباس علماء الغرب في هذا المجال للنظريات التي طرحها علماء المسلمين قبلهم بمئات السنين، وثبت لدينا معرفة المسلمين بهذا العلم وتفوقهم فيه؛ واتباعهم لطرق البحث والاستقصاء العلمي الصحيح والدقيق، في حين أن البعض من علماء الغرب الأوروبي زعموا أنهم أول من اخترع هذا العلم وأطلقوا عليه اسم: "الأنثروبولوجيا". وذلك في أواخر القرن التاسع عشر ومطلع القرن العشرين.

نتائج البحث:

1. الجغرافيون المسلمون هم أول من وضع علم الإناسة بفروعه المتعددة، من بينها الطبيعي والاجتماعي والثقافي.
2. قدم فريق من الجغرافيون المسلمون في مؤلفاتهم الإرهاصات الأولى للأفكار والنظريات الأنثروبولوجية، من أبرزها أثر البيئة الجغرافية والمناخ في سلوك وطباع البشر، مما ساعد المسلمين على معرفة الطبائع والسلوكيات عند الشعوب الأخرى.
3. نسب كثير من العلماء الغربيين، في العصر الحديث، العديد من نظريات المسلمين في علم الإناسة لأنفسهم، بينما سبقهم المسلمون في هذا المجال بمئات السنين، وهو تأثير آخر يضاف إلى مؤثرات الحضارة الإسلامية على أوروبا.

قائمة المصادر:

- **أبقراط: كتاب الأهوية والمياه والبلدان، ترجمة: شبلي شميل، مطبعة المقتطف (القاهرة، 1885م).**
- **ابن الأكفاني، محمد بن إبراهيم بن ساعد الأنصاري (متوفى: 749.هـ/ 1348م)، إرشاد القاصد إلى أسنى المقاصد في أنواع العلوم، تحقيق: عبد المنعم محمد عامر، وآخر (دار الفكر العربي، القاهرة، د.ت).**
- **ابن بطوطة، شمس الدين أبي عبد الله محمد بن عبد الله اللواتي الطنجي (متوفى: 779.هـ/ 1377م)، رحلة ابن بطوطة المُسَمّاة تحفة النُّظّار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار، تحقيق: عبد الهادي التّازي (مطبوعات أكاديمية المملكة المغربية، الرباط، 1997م).**
- **ابن خرداذبه، أبي القاسم عبيد الله بن عبد الله (متوفى: 280.هـ/ 893.م): المسالك والممالك، مطبعة بريل (ليدن، 1889م).**
- **ابن خلدون، عبد الرحمن بن محمد، (متوفى: 808.هـ/ 1406.م)، المقدمة، تحقيق: خليل شحادة (دار الفكر، بيروت، 2001م).**
- **ابن سعيد المغربي، كتاب الجغرافيا، تحقيق: إسماعيل العربي، منشورات المكتب التجاري (بيروت، 1970م).**

- ابن فضلان، أحمد بن فضلان بن العباس، (متوفى: بعد 310.هـ/ بعد 922.م)، رحلة ابن فضلان، تحقيق: سامي الدهان (المطبعة الهاشمية، دمشق، 1960م).
- إخوان الصفا، (عاشوا خلال القرن الثالث الهجري)، رسائل إخوان الصفا وخلان الوفا (دار صادر، بيروت، د.ت).
- البغدادي، عبد اللطيف بن يوسف بن محمد بن علي موفق الدين (متوفى: 557.هـ/ 1162.م)، كتاب الإفادة والاعتبار في الأمور المُشاهدة والحوادث المُعاينة بأرض مصر (الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، 1998م).
- الحموي، ياقوت بن عبد الله، (متوفى: 622.هـ/ 1225.م)، معجم البلدان (دار صادر، بيروت، 1977م).
- الدمشقي، شمس الدين أبي عبد الله محمد أبي طالب الأنصاري (متوفى: 727.هـ/ 1327.م)، كتاب نخبة الدهر في عجائب البر والبحر (مطبعة الأكاديمية الإمبراطورية، بطرسبورغ، 1865م)
- طاش كبري زاده، أحمد بن مصطفى (متوفى: 968.هـ/ 1561.م)، مفتاح السعادة ومصباح السيادة في موضوعات العلوم (دار الكتب العلمية، بيروت، 1985م).
- القزويني، زكريا بن محمد بن محمود الكوفي، (متوفى: 682.هـ/ 1283.م)، عجائب المخلوقات وغرائب الموجودات، (مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، بيروت، 2000م).
- المسعودي، علي بن الحسين بن علي، (متوفى: 346.هـ/ 957.م)، مروج الذهب ومعادن الجوهر، تحقيق: كمال حسن مرعي (المكتبة العصرية، بيروت، 2005م).
- المقدسي، شمس الدين أبي عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر (متوفى: 336.هـ/ 947.م)، أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم (دار صادر، بيروت، د.ت).

المراجع العربية

- التميمي، عباس جبير، وآخر: أخلاق الشعوب من خلال الرحالة العرب والمسلمين، مطبعة تموزة (دمشق، 2014م).
- حسن، زكي محمد: الرحالة المسلمون في العصور الوسطى، مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة (القاهرة، 2013م).
- حميدة، عبد الرحمن: أعلام الجغرافيين العرب، دار الفكر (دمشق، 1995م).
- خضر، أحمد إبراهيم، علم الأنثروبولوجيا Anthropology، ماهيته والانتقادات المُوجهة إليه، بحث منشور على موقع الألوكة، استرجع بتاريخ 2014/11/30م، من الرابط: http://www.alukah.net/web/khedr/84415/26801.
- الخفاف، عبد علي، وآخر: دراسات في التراث الجغرافي العربي الإسلامي، دار الكندي للنشر والتوزيع (إربد، 2000م).
- الدفاع، علي بن عبد الله: رواد علم الجغرافيا في الحضارة العربية والإسلامية، مكتبة التوبة (الرياض، 1993م).
- سليم، شاكر مصطفى، قاموس الأنثروبولوجيا (منشورات جامعة الكويت، الكويت، 1981م).
- الشرقاوي، حسن، المسلمون علماء وحكماء (مؤسسة المختار للنشر والتوزيع، القاهرة، 1987م).
- عوض، محمد مؤنس: الجغرافيون والرحالة المسلمون في بلاد الشام زمن الحروب الصليبية، عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية (القاهرة، 1995م).
- فهيم، حسين، قصة الأنثروبولوجيا فصول في تاريخ علم الإنسان، سلسلة عالم المعرفة (مطابع الرسالة، الكويت، 1986م).
- كراتشوفسكي، اغناطيوس يوليا نوفتش: تاريخ الأدب الجغرافي العربي، ترجمة: صلاح الدين عثمان هاشم، لجنة التأليف والترجمة والنشر (القاهرة، 1957م).
- الكروي، إبراهيم سلمان، وآخر: المرجع في الحضارة العربية الإسلامية، منشورات ذات السلاسل (الكويت، 1984م).
- الكيلاني، جمال الدين فالح: الرحلات والرحالة في التاريخ الإسلامي، دار الزنبقة (القاهرة، 2014م).
- مجموعة من المؤلفين، الموسوعة العربية الميسرة (المكتبة العصرية، بيروت، 2009م).

– محمدين، محمد محمود: الجغرافيا والجغرافيون بين الزمان والمكان، دار الخريجي للنشر والتوزيع (الرياض، 1417هـ).

- **Darnell, Regna. Reading in the History of Anthropology, University of Illinois, Research Report No 8. 1978.**
- **Mauduit. J. A. Manuel d'ethnographia. Payot: Paris, 1960.**
- **Thomas Eriksen. A History of Anthropology, Pluto Press, London, 2001.**

Anthropology among Muslim travelers and geographers

Abstract:

This study came to overcome an ideological problem at the beginning of the emergence of anthropology among Muslims, and an attempt by us to collect signs of ideas, theories, and contributions of Muslim geographers in this science, and their intellectual attempts to present cultural knowledge aimed at achieving social and ethnological thought, and contributing to the knowledge of the other. We cannot fail in this regard to draw attention to the fact that the first advances of this science appeared among some ancient peoples, most notably the Egyptians, the Greeks, the Chinese, and the Romans. Accordingly; Muslims had their own role and age in this field, and a large number of travelers appeared from them who presented in their books the cultures and customs they witnessed with other nations, and also presented many theories in this science, and if they were not aware that they had invented a new science, it was It has a huge impact on Europe and the whole world.